المحاضرة رقم (06)

الأدب السياسي في عصر صدر الإسلام

مفتتح

مع مجيء الإسلام خطا العرب خطوة عملاقة نحو المدنية، ثم الحضارة في أزمنة لاحقة، تخللها حراك سياسي مرير، ترجع أسبابه الأولى إلى الانعطافة الكبرى التي أحدثها الإسلام في الذهنيات والسلوكيات والفعاليات، ثم إلى طبيعة التحولات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي نشأت إثر حركة التمدن الإسلامي، وما تبعها من تيارات ومذاهب موافقة أو معارضة، أعادت تشكيل الحساسية الاجتماعية والسياسية والأدبية لإنسان تلك الفترة بما يستجيب لطبيعة التحول ودواعيه، وهو موضوع محاضرتنا الحالية:

1- شعر الدعوة الإسلامية

الإسلام منهج شامل في الحياة؛ يعنى بحياة الفرد والجماعة، فنظم علاقاتهم، وحدد مصالحهم الاجتماعية والسياسية، وفق ضوابط وقوانين، أسهمت في تشكيل ملامح دولة تتعارض مع مفهوم القبيلة، كما ألفتها ذهنيات تلك الفترة، بدأت بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم للإسلام، ومفهومه الجديد للإنسان، منتهجة الدعاية السياسية ترويجا لقيمها (والمواجهة أيضا)، متوسلة بالخطابة والشعر أطرا لنشر برامجها وخططها، تحقيقا لأهدافها وغاياتها.

ورغم أن شعر الدعوة الإسلامية كان معظمه يدور حول معاني: نشر تعاليم الدين الإسلامي، والدفاع عنه والانتصار له، ومدح الأبطال ورثائهم من طريق صفاتهم وأخلاقهم وأفعالهم، إلا أنه كان جديدا في الموضوع، المعنى، الأسلوب، والغاية؛ ليس لأنه شعر يستمد قوامه من الإسلام والهدى والسماحة، بدل نظم القبيلة وأعرافها الجاهلية، بل لكونه يعبر بطريقة جديدة عن مفهوم الجماعة السياسية في إطارها الخاص: المسلمون

الرافضون في مواجهة الكفار الجاهليين، ثم المؤسسة السياسية المنتمي إليها في إطارها العام: الدولة الإسلامية المنتظمة في مقابل القبيلة الجاهلية الفوضوية.

قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى[1] باكيا قتلى قريش بعد معركة بدر: (الكامل)

ماذا على (بدرٍ) وماذا حولَهُ مِنْ فتيةٍ بيضِ الوجوهِ كرامِ

تركوا نُبَيْهًا خلفهم ومُنبّهًا وابني ربيعةَ خيرَ خَصم فِئامِ[2]

والحارثَ الفيّاضَ يبرق وجههُ كالبدرِ جلّى ليلةَ الإظلامِ[3]

والعاصيَ بنَ منبّهٍ ذا مِرَّةٍ رُمْحًا تَميمًا غيرَ ذي أوْصامِ[4]

تنمي بهِ أعراقُه وجدودُه ومآثرُ الأخوالِ والأعمام

وإذا بكى باكٍ فأعولَ شجوَهُ فعلى الرئيس الماجد ابنِ هشامِ[5]

حيّا الإلهُ أبا الوليدِ ورهطَهُ ربُّ الأنامِ، وخصَّهُمْ بسلامِ[6]

يقوم بكاء ابن الزِّبَعْرَى على صفات جاهلية[7] ذات طبيعة اجتماعية، لكنها تكتسي مكانة متميزة عند قريش، خاصة بمكة مآل العرب في التجارة والحج والخصام والجوار والشعر، منها: الكرم، والسناء، والقوة، والحسب، وهو أسف شديد على أولئك القوم الأشراف المقتولين بسيوف المسلمين المغمورين، والذي أغاض الزبعرى، وقومه من ورائه، هو عودتهم إلى مكة منكسرين مهزومين، مخلفين أكبادهم، وهم علية القوم، وراء ظهورهم، من قبل شرذمة من الناس عدوهم أراذلهم، متصورين تزعزع مكانتهم عند العرب.

فناقضه حسان بن ثابت بقصيدة، هذا ما ورد فيها [8]: (الكامل)

ابكِ بكتْ عيناك ثمّ تبادرتْ بدمٍ يَعلُّ غُروبُها سَجَّامِ[9]

---

1)- عبد الله بن الزعبرى، ***شعره***، تحقيق: يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان،1401هـ - 1981م، ط2، ص46- 47.

2)- نبيه ومنبّه: أخوان، وهما ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سهم. وابنا ربيعة هما: عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وشيبة بن ربيعة بن عبد شمس. والفئام: الجماعات من الناس.

3)- الحارث هو: الحارث بن منبه بن الحجاج. الفياض: الكثير الكرم. جلّى: كشف، أظهر، أشرق، أضاء.

4)- العاصي بن منبه بن الحجاج السهمي. المرّة: القوة والشدة. التميم: الطويل. الأوصام: العيوب.

5)- ابن هشام هو: أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. الإعوال: رفع الصوت بالبكاء. الشجو: الحزن.

6)- رهطه: أهله، قومه، وعشيرته الأقربون. الأنام: الخلق جميعا، وقد غلبت دلالتها على البشر.

7)- أحمد الشايب، ***تاريخ النقائض في الشعر العربي***، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة- مضر، ط2، 1954م، ص133.

8)- حسان بن ثابت، ***ديوانه***، شرحه وكتب هوامشه وعلق عليه: عبدأ علي مهنّا، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط2، 1414هـ - 1994م، ص227- 228.

ماذا بكيتَ على الذين تتابعوا هلاّ ذكرتَ مكارِمَ الأقوامِ
وذكرْتَ منّا ماجدًا ذا همَّةٍ سَمْحَ الخلائِقِ ماجِد الإقدامِ
أعني النبيّ أخا التّكرُّمِ والنّدى وأبرَّ من يُولي على الأقسامِ[10]
فلمثلِهِ ولِمِثلِ ما يدْعو لهُ كان المُمَدَّح ثَمَّ غيرَ كَهَامِ[11]

تدور مناقضة حسان حول قيم الإسلام الروحية[12]، وفي سبيل غاياتها الشريفة، بأسلوب جزل رغم هبوطه عن الأساليب القديمة، كما أنها تقوم على نقطتين: استنكار البكاء على قتلى المشركين، ثم الاحتفاء بالرسول، صلى الله عليه وسلم، ودعوته الإسلامية الكريمة، وهذه النقطة هي الصلة بين القديم والحديث في معاني النقائض، التي تجعلها امتدادا للنقائض الجاهلية؛ لأنها قويت مثلها في أزمنة الحروب، كما يجعلها متجاوزة لها طالما ارتكزت نقائض الجاهلية على معاني الأحساب والأنساب والأيام، بينما أسست النقائض الإسلامية لمعان جديدة قوامها الإسلام والهدى والسماحة.

2- الشعر في زمن الخلفاء الراشدين

حرص الخلفاء الراشدون على رعاية التركة التي خلفها رسول الله صلى الله عليه وسلم، المتمثلة في الدولة الإسلامية الفتية، وقد انتهجوا لأجل ذلك النهج الإسلامي القويم، غير أن توسع رقعة الدولة الإسلامية، وانفتاحها على أجناس وذهنيات مختلفة، أسهم في تغذية شعور القبيلة المنسي لفترة لدى العربي الذي أقبل على الإسلام حرصا على مكانته وتهيبا من السلطة الروحية التي يقذفها الرسول صلى الله عليه وسلم في النفوس، نلمسه في الرفض والتمرد والثورة، وقد تمثل عبر مظاهر عدة منها: الردة في خلافة أبي بكر، والشعوبية في خلافة عمر، والانقلاب في زمن عثمان، والمعارضة في زمن علي التي أفضت إلى انقسام الدولة الإسلامية، واقتربت من الحرب الأهلية، هذا كله أنتج شعرا سياسيا عبرت موضوعاته عن مشاعر الرفض والتمرد والمقاومة، فلم يكن جديدا في أسلوبه بانفعاله وحماسته وإيقاعه الفرداني الذي يحكي توجها جماعيا، ومعانيه التي تنفتح

9)- سجّام: سيّال.
10)- يولي: يحلف.
11)- الكهام: الكلّ والضعيف.
12)- شوقي ضيف، ***تاريخ الأدب العربي 2: العصر الإسلامي***، دار المعارف، القاهرة- مصر، ط7، 1976م، ص62.

على روح تواقة للحرية، وشكله أيضا إذ ورد في معظمه مقطعات شعرية تحكي خلجات الذات في مواجهة موقف ما فحسب، بل في كونه يعبر عن السبل التي انتهجتها الدولة من أجل إعادة النظام وضبطه في صفوف الرعية، في مقابل أشكال الرفض والمعارضة والمقاومة التي عبرت عنها جماعات منظمة، بأشكال متنوعة، وغايات مختلفة: العصبية، المكانة، النفوذ، أو الرفض غير المبرر.

قال أبو الطُّفيل عامر بن واثلة واصفا أنصار علي[13]: (الطويل)

إلى رجبِ السّبعينَ يُعرفُ موقفي مَعَ السّيفِ في جأواءَ جمٌّ عديدُها[14]

كهولٌ وشبانٌ وساداتُ معشرٍ على الخَيلِ فُرسانٌ قليلٌ صدودُها

شعارُهُمُ سيما النّبيِّ ورايةٌ بها انتقمَ الرّحمنُ ممّنْ يَكيدهُا

فرد عليه خزيمة الأسدي واصفا جيش معاوية[15]: (الطويل)

إلى رجبٍ غُرَّةُ الشّهرِ بعدَهُ تصبّحكُمُ حُمْرُ المنايا وسُودُها

ثمانونَ ألفًا دينُ عثمانَ دينُهمْ كتائبُ فيها جبرئيلُ يقودُها

فمنْ عاشَ منكُمْ عاشَ عبدًا ومنْ يمُتْ ففي النّار سُقياهُ هناكَ صديدُها

يكشف التغني بمعركة صفين[16] في كلا النصين عن موقف سياسي يريد إثبات الحق لصالحه والانتصار له، وهما نصان يظهر عليهما اتخاذ القرآن والسنة مدارا لفعاليتهما الشعرية لتثوير جمالية النص الشعري والتأثير في النفوس، بحيث برز التأثر بهما جليا على كامل البنية النصية والرؤيوية لكليهما، سواء ما تعلق منها بالبنية المعجمية أم الأسلوبية والتصويرية والإيقاعية والموضوعية، إلا أنهما لم يستطيعا التخلص من رواسب الجاهلية التي أسست لموروثهما الشعري، فبدت لهجة الفخر القبلي في كلا النصين قوية، إلا أنها تزيت في النص الأول بصوت الحكمة والتقوى، بينما تحلت في

13)- أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني، ***ديوانه***، صنعة وتحقيق: الطيب العشّاش، مؤسسة المواهب للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط1، 1419هـ -1999م، 36- 37.

14)-الجأواء: كدراء اللون في حمرة ؛ وهو لون صدإ الحديد. الجم: الكثير من كلّ شيء.العدي: الندّ والقرن، والعدد الكثير.

15)- أبو الفرج الأصفهاني، ***الأغاني***، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة- مصر، ط1، 1379هـ - 1959م، 15/ 150.

16)- معركة صفين: واقعة كبرى نشبت بين جيش علي ومعاوية سنة 37هـ في المنطقة الكائنة بين أعالي العراق وبلاد الشام. يُنظر: نصر بن مزاحم المنقري، ***وقعة صفين***، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، ط2، 1382هـ، ص423.

النص الثاني بمنطق القوة والسلطان، ولا يخفى أثر السياسة النبوية على الأول التي أوقفت جهدها على الإنسان والمجتمع، وأثر السياسة الرومانية على الثاني التي أفرغت جهدها على الحكم والسياسية.

3- شعر الفتوح الإسلامية

الإسلام في جوهره عالمي الاتجاه؛ فهو نزاع بطبيعته نحو الانفتاح لأهداف أكثر شمولية؛ بحيث تسع الإنسانية جمعاء: الأخلاق، المساواة، العدالة، الحرية، ومن هذه الناحية كانت تهمته نحو التوسع سياسية أكثر منها دينية أو إنسانية؛ لأنها تبرز طبائع التملك، والاستحواذ، والتفوق، والتعالي، لدى الفرد من خلال الرغبة في التوسع، أكثر من تبرير حرصه على تحرير الإنسان من أخيه الإنسان سواء كان فردا مستبدا: الإقطاع، التراتبية، الرق، أم جماعة مهيمنة: قبيلة، دولة، ومهما يكن من أمر فقد نتج عن الفتوحات الإسلامية شعرا كثيرا اتسم بمضامين إسلامية ظاهرها: الدعوة إلى الإسلام، الترويج إلى تعاليمه، مدح الأبطال، ورثائهم، وباطنها: الحنين، الغربة، إلا أنها في الحقيقة تحكي تحولا مجتمعيا للدولة الإسلامية في إطار سياسي، يثير دلالات: التحزب أو الشروع في الحزبية العصبية (العدنانية أو المضرية/ القحطانية أو اليمانية)، والشعوبية (العرب/ الفرس/ الروم)، والتراتبية (العبيد، الحرفيون، العلوج، النصرانيون، المجوس، الوثنيون)

قال جرير بن عبد الله البجلي فيما يشبه الاعتذار عن قعود سعد بن أبي وقاص عن خوض معركة القادسية بنفسه: (الرجز)

أنا جريرٌ كُنيتي أبو عمرٍو قدْ نصَرَ اللهُ وسعدٌ في القصرِ[17]

فردّ عليه سعد بمقطوعة شعرية، أشاد فيها ببطولة عمرو بن القعقاع التميمي، وحملة بن جوية الكناني، فيما أظهر استهانته بجرير بن عبد الله تعداه إلى قبيلته جبيلة كلها، وذلك في قوله: (الوافر)

وَما أَرجُو بَجيلةَ غيرَ أنّي أُؤَمِّلُ أَجْرَهُمْ يوْمَ الحسابِ[18]

17)- النعمان عبد المتعال القاضي، ***شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام***، (د.ن)، (د.ط)، (د.ت)، ص137.

يظهر النصان بمثابة تعريض يحرص كلاهما على إخراج صاحبه بصورة البطل على حساب الآخر، رغم ملامح الأسلوب الإسلامي البارزة عليهما كالإيجاز والتناص والتقوى والتوكل، لكنهما في الحقيقة يكشفان عن صراع سياسي مداره التنازع على السلطة بين القحطانية[19] والعدنانية[20] وهو صراع تاريخي لم تنته دواعيه طيلة فترة الدولة الإسلامية، وإن كانت قد زالت في معركة القادسية بمعرفة مبرراتها، وهي: مرض سعد[21] الذي أقعده عن قيادة الجيش، بينما كانت عادة القادة العرب أن يتقدموا الجيوش بنفسهم، الأمر الذي لم يستسغه جنود القادسية، فتقولوا عنه الأقاويل، ورموه بأبشع التهم لعل أفظعها الجبن، حتى برز لهم سعد محملا على الأكتاف[22]، وهو مستلق على بطنه، فرقوا لحاله، وفهموا مبرراته، وتقبلوها.

4- شعر المخضرمين

يحكي الشعر الذي أنتجه الشعراء المخضرمون تمزقا للذات سياسيا أكثر منه اجتماعيا، ذلك أنه يحيل على صراع ذهني كامن في الذات نفسها، بين مرحلة سياسية فائتة، تحن إليها الذات لميل طبيعي نحو حياة قديمة متحررة من أي سلطة تذكر، إذ ترفض الانصياع للمعايير السياسية الصارمة، وقد تحقق ذلك في القبيلة بأعرافها العصبية، وما تثيره من دلالات جاهلية: الفوضى، الانحراف، والانحلال، وبين مرحلة سياسية جديدة، ترفضها الذات لنفور طبيعي ضد حياة تفرض شرعيتها بالخضوع التام للفرد تجاه الأنظمة السياسية، وقد تحقق ذلك في الدولة، وما تثيره من دلالات: النظام، الانضباط، والالتزام، انعكس ذلك كله عبر شعر المخضرمين، فمضامينه الاجتماعية التي تصدر من القبيلة التي تبرر لذة الذات وحدها: الهجاء، الغزل، الخمر، وإن كانت، في

---

18)- ***م.ن***، ص.ن.

19)- فقبيلة بجيلة التي ينتمي إليها جرير بن عبد الله من القبائل اليمانية القحطانية، كما تعدّها مراجع أخرى من القبائل القحطانية الحجازية؛ لأنها استوطنت من القدم السراة (أعظم جبال العرب، وهو الحد الفاصل بين تهامة ونجد) من بلاد الحجاز بجزيرة العرب. يُنظر: عبد العزيز بن ساعد الياسين، ***قبيلة بجيلة (نسبها، أخبارها، بطونها وفروعها والمنتمون إليها في الكويت)***، دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ط1، 1426هـ -2006م، .ص54.

20)- ذلك أن سعد بن أبي وقاص ينتمي إلى قبيلة زهرة بن كلاب؛ وهي بطن من بني مرّة بن كلاب، من قريش، من العدنانية. يُنظر: عمر رضا كحّالة، ***معجم قبائل العرب القديمة والحديثة***، المكتبة الهاشمية لأصحابها محمد هاشم وشركاه، دمشق- سوريا، (د.ط)، 1368هـ - 1949م، 2/ 482.

21)- صلاح عبد الفتاح الخالدي، ***سعد بن أبي وقاص: السباق للإسلام، المبشر بالجنة والقائد المجاهد***، دار القلم، دمشق- سوريا، ط1، 1434هـ - 2003م، .ص245.

22)- هو مرض عرق النسا، الذي منع سعدا من الحركة والمشي والقعود وركوب الخيل، وألزمه النوم على بطنه، فضلا عن انتشار البثور والدمامل على جسمه مما ضاعف عجزه وألمه. يُنظر: ***م.ن***، ص.ن.

الظاهر، تقوم في مواجهة الدولة، التي تتبنى تعاليم الدين السمحة: الحق، الصدق، الحياء، إلا أنها في الباطن تحيل على دلالات سياسية تحكي حقيقة الصراع؛ صراع الفرد ذي الذهنية الجاهلية تحقيقا للذته: المكانة، النسب، المتعة، وصراع الجماعة/ القبيلة تحقيقا لمكانتها، تغذيه العصبية في مقابل الدولة التي تحرص على تنظيم العلاقات بين الذات والجماعة وتحديدها، في إطار الحرية، المساواة، العدالة.

قال الحطيئة معرضا الزبرقان بن بدر، ومثنيا على بغيض بن شماس: (البسيط)

دَع المكارمَ لا ترحلْ لبُغْيَتها واقْعُدْ فإنَّكَ الطّاعمُ الكاسي[23]

يتعين النص في الظاهر بوصفه قصيدة تشيد بمكارم بغيض، وتعرض بمكارم الزبرقان، ذلك أن الحطيئة كان متجها إلى العراق يستجدي مؤونة عياله في سنة مجدبة حينما التقى الزبرقان بن بدر بقرقرى[24] فعرض عليه مساعدته، ولما علم بغيض بن شماس بذهاب الحطيئة إلى بيت الزبرقان، اجتهد في استمالة الحطيئة إليه خاصة أنه كانت بينه وبين الزبرقان منافسة شديدة، وأفسد العلاقة بين الحطيئة وزوج الزبرقان هنيدة التي تراخت في استقباله، فالتحق الحطيئة بعشيرة بغيض بدل الزبرقان[25]، إلا أنه يكشف في الباطن عن موقف سياسي مفاده المنافسة القوية بين الزبرقان وبغيض طلبا للمكانة والنفوذ والسيطرة، تغذيه المكائد والأحابيل.

5- خصائص الشعر في السياسي في صدر الإسلام

أحدث الإسلام تحولاً محسوساً في مسار الشعر العربي على مستوى الموقف الفكري والفني الجمالي معا، وبرزت ظواهر أسلوبية جديدة في الشعر السياسي لصدر الإسلام، تعزى إلى القرآن والحديث، لعلّ أبرزها:

1- احتذاء كل من القرآن الكريم والحديث الشريف منهجا في تتبع الأفكار والمضامين والمعاني واستنباطها وترتيبها وتعميقها، مما أضفى روحا جديدا على الشعر السياسي لصدر الإسلام أعلت قيمته الجمالية وحضوره الأدبي، وبالتالي تأثيره البليغ في

23)- الحطيئة، ***ديوانه***، دراسة وتبويب: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1413هـ - 1993م، ص119.
24)- قرقرى: أرض باليمامة في قرى وزروع ونخيل كثيرة. ينظر: ياقوت الحموي، ***معجم البلدان***، دار صادر، بيروت- لبنان، (د.ط)، 1397هـ - 1993م، 4/ 326.
25)- أبو الفرج الأصفهاني، ***الأغاني***، 2/ 180 وما بعدها.

النفوس بهدف استمالتها، وإلحاقها بصفوفه، وتوجيهها وفق مقتضيات النهج السياسي المتبع.

2- شيوع ظاهرة الصدق الفني في الشعر السياسي لصدر الإسلام بوصفها طريقة مستحدثة في التعبير عن العواطف الإنسانية النبيلة بحيث نجحت في التأثير في النفوس؛ لأنه شعر رغبة واقتناع ومعاناة مع التجربة لا شعر تزلف من أجل العطاء، مما يجعله مطلوبا في ذاته؛ لأنه شعر يرى الواقع على حقيقته فيدعو إلى قبول خيره ورفض شره؛ ومطلوبا عند الحكام؛ لأنه شعر يحفظ هيبة الحكم إذ يتغنى بالولاء له أو يزيلها بالثورة عليه.

3- انتقال الموقف الشعري من التعصب للأفراد أو القبيلة إلى التحزب للفكرة والاتجاه والحُكْم طالما يوافق الحق ومبدأ الشاعر السياسي، فتحققت بذلك بداية سلطة الشعر الأدبية بوصفها إرهاصا يعبر عن حياة جديدة تديرها السياسة وقوانين الحكم، وإن ظلت محكومة بالنزاعات والحروب إلى حين نضجها في الفترة الأموية؛ زمن نشوء الدولة الإسلامية بمفهومها المعروف، وتشكل النواة السياسية وانتشارها في فضاءات المدنية العربية.

ومهما يكن من أمر فقد لاحت خلال هذه المرحلة بوادر الشعر السياسي، تمثلت في سلطة الشعر والشاعر، التي تراوحت بين المواجهة: الرفض، التمرد، المعارضة المقاومة، يغذيها شعور سياسي يصدر عن حنين ماضوي تجاه العصبية القبلية، وبين الموافقة: الدفاع، الانتصار، الدعاية، الترويج، التي يغذيها شعور سياسي يصدر عن رغبة في الانتماء حادثة تجاه الدولة، غير أنها سلطة محدودة بموضوعاتها وغاياتها، نظرا لانحسار قضاياها وأسبابها، لكنها ستنفلت في أوقات لاحقة، الأموية فالعباسية، فتعرف صلاحية غير مشروطة.